ليلا والديب

"قرَّبت ليلا من تخت ستها، كانت خايفة كتير... خايفة لإنها حاسة إنو اللي بالتخت مو ستها! قام رفع الديب الغطا"... عبقت رائحة قوية وتعالت أصوات خبط ودربكة في أرض الديار، لوَّحت سهيلة بأنفها في الهواء، ثم قالت وهي تقف: "ريحة بارود". خرجت بسرعة، لحقت بها ليلا وسامر.

كان أبو سليمان خارجا من السلملك وهو يلهث، يحمل البارودة والنياشين وأحزمة الفشك، اقترب من الحائط وأخذ يحفر في حوض الزريعة.

قال: الفرنساوي جاية عَ البلد وبدو يشلح الناس السلاح والبواريد.

نامت ليلا مقهورة، لم تسمع باقي الحكاية التي تحمل اسمها، كانت تريد أن تسأل أمها عن شكل الديب، وما في بطنه من أشياء، قال لها سامر الغليظ: "ملان كلو خنافس!"

صادف خروج ليلا من بيت ستها أم حسن بصحبة أمها مرور العسكر الفرنساوي يركبون الأتومبيلات والحناتير والبغال ضمن قافلة كبيرة لا يظهر أولها من آخرها. طلبت منها أمها لما تفاجأت برؤيتهم وغزا وجهها الذعر أن تستعجل وألا تماطل وتتلفت باستمرار وتنظر إليهم، ولم تكن ليلا تستطيع التقدم بسبب بقجة الملابس الكبيرة التي أجبرت على حملها، غير أن وجه أمها المذعور والإلحاح المستمر على التقدم بسرعة جعلها تنسى جزءا من تعبها، وعندما سألتها ماذا يمكن أن يعملوا معهما، استشاطت غضبًا من جديد وطلبت منها أن تمشي من دون أسئلة لأنهم ذئاب وربما يأكلونهما إن تأخروا. استجابت ليلا

ومشت بسرعة، لكنها ظلت تنظر خلسة إلى وديع الأحدب وهو يلاحق العسكر الفرنساوي، يكلمهم ويحاول أن يطلب منهم أكلا وأشياء أخرى.
قالت أمها لوديع أن يذهب إلى البيت، فأبعدها بيده ولم يكترث لما تقول حاولت أن تناديه ولكنه راح صوبهم.
قالت ليلا خائفة:
"بدن ياكلوه؟"
"مشي ولا تسألي كتير!"

استطاعت ليلا أن تغافل أمها عندما رأتها مشغولة في توضيب أوضة المعيشة وتفلت من مراقبتها بعد أن أدركت أنها لن تسمح لها بأي حال بالخروج لتتفرج على العسكر. وقفت أمام باب الدار تراقب العسكر الفرنساوي الذي احتل الساحة الممتدة أمام بيتهم. كانوا يعملون بنشاط في بناء خيمهم بين أشجار الكينا ويتحركون وينغلون مثل النمل. ولا يكادون يفلتون البواريد المربوطة بظهورهم وبرأسها سكاكين مثل سكاكين المطبخ، ويراقبون أبواب البيوت والنوافذ بعيون مثل عيون القطط الخائفة.

أعجبتها ملابسهم الجميلة، والطواقي الملونة التي على رؤوسهم وتمنت أن يكون لها واحدة مثلها.

اقترب منهم وديع فنظروا إليه بذعر ومدوا صوبه بواريدهم، كادوا يأكلونه لأنه لم يسمع كلمة أمها، خافت ليلا كثيرا، ركضت صوب الباب المغلق وراحت تطرقه وتصرخ وتبكي.

حملتها أمها كما تحمل قطة وقرَّبت وجهها إلى المضخة اليدوية وغسلته بخشونة جعلت منخارها يوجعها، ثم أنبتها تأنيبًا شديدًا على خروجها ومخالفة أوامرها، وحبستها في بيت الفئران نصف ساعة لأنها لم تسمع كلمتها. ولولا تشفع أبيها لماتت من القهر.

اختلفت مع سامر الغليظ لما قال لها إن العسكر الفرنساوي بشر مثلنا ولكنهم مجرمون يقتلون الناس، فقالت له: لا بل هم ذئاب، فأمها لا تكذب. ثم تطور الخلاف إلى أن تمسَّكَ كل بشعر الآخر، ولم يحل هذه المشكلة العويصة إلا أمها التي أكدت من جديد بأنهم ذئاب يأكلون الناس.

شعر سامر بالغيظ الشديد، استغل انشغال أمه بحشو الكوسا، لطم ليلا على منخارها بقوة وهرب كالسعدان إلى السطح.

أمرتها أمها أن تكف عن البكاء، ثم أعطتها صحنا مليئًا بالبرغل وطلبت منها أن تأخذه إلى قن الدجاج حتى تطعمه للدجاجات المسكينات الجائعات، رمت الصحن على الأرض وهربت إلى السلملك، تسلقت الكنباية بصعوبة للوصول إلى الشباك حيث مخبؤها المعتاد، استقرت في أرض الشباك ونسيت كل شيء جلست وكأنها تجلس في بيتها الذي ترتاح فيه من غلاظة سامر، وبيتها الذي تخبئ فيه كل لعبها وأشيائها، أخذت تربي فيه أولادها السعادين، تصرخ بهم، وتؤنبهم لأنهم لا يهدؤون أبدًا، وتضربهم برفق كلما أذنبوا وتهددهم بحبس الفئران وتخيفهم من الذئاب.

سمعت أصوات زمامير غريبة، أبعدت الجلالة فاكتشفت أنها تستطيع مراقبة العسكر من الشباك، كان أحدهم يضغط على صندوق كبير معلق على رقبته، يفتح ويغلق مثل إسفنجة ويخرج أصوات زمامير حلوة، والآخرون يصفقون بحماس ويفتحون أفواههم ويضحكون على وديع وهو يرقص كالأبله الأجدب. لامته بينها وبين نفسها لأنه لم يذهب إلى البيت كما أمرته أمها.

مر اثنان من العسكر الذئاب في الحارة من أمام الشباك، فخافت وتراجعت إلى الخلف، اقترب منها أحدهما وراح يبتسم لها ويتمتم كالشياطين، وهو يمد بونبونة مغلفة بألوان حلوة غير أنها خافت أن يأكلها فتراجعت إلى الخلف أكثر، راح يتلاطف، ابتسم لها فظهرت

أنيابه، صرخت مذعورة وتراجعت إلى الخلف، ترك البونبونة عند حافة الشباك وراح، تأكدت من ذهابه، تناولت البونبونة، قلبتها ثم قشرتها وراحت تأكلتها، كانت لذيذة للغاية.

توقَّفت الموسيقى، تناثر العسكر الذئاب وتراجعوا إلى خيامهم ظل وديع واقفًا ينتظر، خرج أحدهم من الخيمة وأعطاه عروسة كبيرة، ربما كانت عروسة جبنة، أخذ يلتهمها بشهية مفرطة، تلمظت، حسدته وتمنت أن تكون هذه العروسة لها.

مالت على مخدتها، أغمضت عينيها... نادتها أمها. أعطتها صرة فيها فطائر من اللحمة الشهية. قالت لها أن تحملها إلى بيت ستها أم حسن لتعطيها إياها، ثم أكدت عليها أن تروح من حارة السبيل، وحذرتها بشدة من أن تروح من الساحة من عند المخيم أمام الذئاب.

خرجت حاملة الصرة، نسيت تحذير أمها فاتجهت إلى بيت ستها أم حسن متخذة طريق الساحة مخالفة توصية أمها لأنها ترغب بالتفرج على طواقي الذئاب حلوة الألوان. رآها العسكري الديب الذي أعطاها البونبونة اللذيذة من دون أن تراه، فأسرع إلى بيت ستها من حارة السبيل. طرق الباب، أجابت من الداخل: "مين هاد؟!". قال لها: "أنا ليلا، جبت لك صرة كبيرة فيها فطاير لحمة طيبة.. شوفي ريحتن ما أطيبا!".

نظرت أم حسن من ثقب الباب، شكت في الأمر، ثم فتحت الباب، حملها العسكري الديب وقذفها في فمه، ابتلعها كلها بلقمة واحدة، ثم لبس الإيشارب الخاص بها واستلقى في فراشها بعدما ترك الباب مشقوقًا من أجل قدوم ليلا.

وصلت ليلا، دفعت الباب المشقوق، نادت ستها، اكتشفت أنها تتوجع وتئن في الفراش وقد تغير صوتها، شكَّت في الأمر، سألتها إن هي رأت

الديب أم لا، فلوحت ستها أم حسن برأسها نافية . سألتها عن صوتها البشع والخشن بعد أن كان ناعما حلوا! فقالت إنها مبحوحة بسبب المرض.

سألتها ما الشيء الذي يبرز من تحت الإيشارب، هي تعرف أن وجهها أبيض وناعم وحلو، فأمرتها أن تكف عن الأسئلة وتقترب منها حتى تقبلها وتعطيها بونبونة. اقتربت وهي حذرة، رفع العسكري الديب الذي حسبت أنه ستها الغطاء ووقف، ثم حملها وقذفها في فمه، أكلها كلها بلقمة واحدة.

رأت ليلا ستها في جوفه متكورة على نفسها نائمة بين الخنافس السوداء المخيفة التي تملا بطن الديب، نادتها فلم تجب، فأخذت تبكي بشدة ودعت إلى الله أن يأتي أبوها ليخلصها هي وستها من هذه الخنافس اللعينة التي لا تفتأ تعضها.

تقدم أبوها من حوض الزريعة في أرض الدار نقب فيه، ثم أخرج البارودة من بين التراب.

شمت رائحة بارود.

جاء أبو سليمان إلى بيت ستها بسرعة، دفع الباب بقوة ودخل غاضبا، أطلق رصاصة على الديب الملعون، ثم تناول سكينة معلقة على خصره، وشق بطنه... فتحت ليلا عينيها رأت أبو سليمان فنطت إليه وعانقته، أخذها إلى أرض الدار ولم تنته من البكاء إلا بعدما أكلت حبة كوسا محشي كاملة.

عندما جاء الليل، اختلفت للمرة الثانية هذا اليوم مع سامر الغليظ، غير أن الخلاف لم يتطور هذه المرة إلى شجار وشد شعر كالعادة بل ذهبا ليتأكدا من أمهما التي دعت إلى الله أن يريحها من خلافاتهما الغبية

التي لا تنتهي. فمن أين لها أن تعرف إن كانت أعين الذئاب تضيء في الليل أم لا؟

ذهبا ليتأكدا من الأمر بنفسهما.

دخلا إلى السلملك، اعترضت ليلا بشدة على سامر الذي كان يريد أن يصعد إلى شباك الخنافس، وحذرته من الصعود إليه غير مرة، ثم ذهبا إلى الشباك الثاني، أبعدا الجلالة وجلسا يراقبا.

كان المعسكر مضاء، رأيا الذئاب يطردون وديع الذي ما كان ليروح، صرخ فيه أحدهم بغضب، فما كان من وديع إلا أن ابتعد ورماهم بحجر، ثم لوح له أحدهم بعروسة، ربما كانت عروسة جبنة لذيذة، تلمظت ليلا، وحسدته، كان بيد الديب الأخرى تنكة كاز، فما أن اقترب وديع حتى رمى عليه الكاز وبلله، فتراجع وديع مستغربا، ثم تقدم ليتناول العروسة، فأشعل الديب عود كبريت ورماه عليه فاشتعل، اشتعل وديع، اشتعل وديع كله! اشتعل حتى أضاء الليل كله، صار اللهب يتصاعد منه عاليا عاليا، صار يركض، يركض وهو يصرخ، يصرخ بصوت عال، سكتت كل الدنيا وهي تنظر إليه

سكتت!

كان اللهب يشكل أثناء هروبه ذيلا طويلا، طويلا كذيل قطة، قطة مذعورة هاربة، ولكنه لا يلبث أن يتقطع بين الحين والآخر.

سكتت الدنيا!

سكتت كل الدنيا! ثم عبقت بقوة، عبقت رائحة بارود قوية.